منهج الصفدي في "تمام المتون"
شرح رسالة ابن زيدون(الجدية)

أ.د.نزهة جعفر الموسوي
جامعة الموصل / كلية التربية

م.د. بسمة محفوظ البك
جامعة الموصل / كلية التربية

خلاصة البحث

يقوم هذا البحث على التعريف بمنهج الصفدي (- ٧٤٦هـ) في شرحه الموسوم بـ "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون " وهي الرسالة التي كتبها ابن زيدون من سجنه إلى أبي الحزم بن جهور يستعطفه أن يطلق سراحه . وقد أطلق عليها مؤرخو الأدب -فيما بعد- اسم الجدية تمييزا لها عن رسالته التي سموها بـ "الهزلية" وقد كتبها إلى منافسه ابن عبدوس على لسان ولادة حبيبته.

هل لهذا الشرح خصوصيته المستمدة من كونه يقوم على رؤية شارح مشرقي لنص أندلسي ومن كونه يقوم على شرح نص نثري ، بعد أن كثرت شروح الشعر في المشرق وفي الأندلس ؟ ذلك ما يحاول البحث أن يجيب عليه في الصفحات القادمة .

المقدمـــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم

يحمل هذا البحث عنوان "منهج الصفدي في تمام المتون " شرح رسالة ابن زيدون [الجدية]

أما ابن زيدون فهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي القرطبي . الشخصية الأكثر ألقا في القرن الخامس الهجري ؛ الشاعر والناثر المتوفى في عام (٤٦٣هـ) (١)

إن الحدث الأكثر بروزا في حياته – بعد تعلقه بولادة – وقوعه في سجن أبي الحزم بن جهور ٤٣٥هـ) ؛ أحد ملوك الطوائف المتغلبين بالأندلس ،بعد أن استوزره هذا الأخير واعتمده في السفارة

بينه وبين ملوك الأندلس (٢) . غير انه عاد فنقم عليه وحبسه ،فاستعطفه ابن زيدون بالكثير من النظم والنثر .ومن ذلك رسالته التي وسمت فيما بعد بـ [الجدية] .. فما أجدى ذلك عليه شيئا ؛ ففر من سجنه لما أعياه الخطب ، واتصل بالمعتضد بن عباد في اشبيلية (٣)...

الرسالة الجدية: يكتب ابن زيدون رسالته التي وسمت فيما بعد (٤) بالجدية ؛تمييزا لها عن رسالة أخرى شهيرة تتصل بحياته العاطفية ؛وسمت بالهزلية كتبها على لسان حبيبته ولادة إلى غريمه ومنافسه في حبها ، أبي عامر ابن عبدوس وأكثر فيها من الهزء والسخرية بالأخير(٥).

أورد ابن بسام نص الرسالة دون أن يسمّها الجدية وقدم لها بقوله "له من رقعة خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله ،يقول فيها ...."(٦) ويشير د.إحسان عباس في هامش الذخيرة إلى أن هذه هي الرسالة الجدية التي شرحها الصفدي ناقلا عن خط أبن ظافر (٧) (صاحب ذخائر الذخيرة).وتدل على أن ابن بسام يوجز كثيرا بالحذف ،ويغير بعض التغييرات الطفيفة محافظة على السياق الموجز(٨) . وأول إشارة إلى تسميتها بالجدية ترد في شرح آخر (غير شرح الصفدي) طبعه مصطفى عناني بالقاهرة سنة ١٩٠٦ ،وسنة ١٩٢٧ ؛ في كتاب سماه "إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون " (٩) ولم تتهيأ لنا فرصة الوقوف على أي من الطبعتين أما النص الكامل لهذه الرسالة فنجده في "تمام المتون " ؛ حيث أثبتها جملة في بداية شرحه (١٠) ثم أوردها شيئا فشيئا من أولها الى آخرها لإيضاح مبهمها وتفصيل مجملها . وهو بذلك يخالف ابن نباتة صاحب "سرح العيون" في شرح رسالة ابن زيدون الهزلية . فالأخير لم يقدم لشرحه بنص الرسالة متكاملا ؛ بل جرى على منهج من يجزئ النص موضوع الشرح إلى عبارات قوامها جملة واحدة أو أكثر ؛ شريطة أن تتعاقب وفق تسلسلها الذي اختاره مؤلفها .وبهذا لم يكتمل النص الزيدوني إلا بنهاية سرح العيون (١١).

وتقع الرسالة الجدية في واحد وتسعين سطرا وتضم ثمانية وأربعين بيتا شعريا ، من نظم ابن زيدون ومن نظم غيره. ويبدو ابن زيدون في رسالته شديد الحرص على أن ينال حريته ، غير انه لم يبد بصورة المستعطف الذي يبدي تلهفا حارا يرسم عذابه وضيقه ؛ فلم تأت رسالته "صرخة تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين " (١٢) بل جاءت متنا مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ؛ بأسلوب مسجو ع وعبارات يغلب عليها طابع الصنعة والتكلف ؛ تأخذ شكل النثر الفني ؛ لا تنفلت منه أو تتحول عنه إلا حيث يكون السجع صعب المركب(١٣) .

وثمة خيط رفيع يربط أجزاء الرسالة ببعضها فتبدو مقدماتها وكأنها تنبئ بنتائجها فهي مترعة بالإشارة إلى أحداث وشخصيات يذكرها التأريخ بوصفها نماذج للعصيان والتمرد وارتكاب المآثم ؛ ليس من بينها أية إشارة إلى حدث أو شخصية اندلسية . استخدمها ابن زيدون للتدليل على أن ذنبه لا يعد ذنبا قياسا إليها . وان كانت إشاراته تلك من الإيجاز بحيث لم تتجاوز سبعة عشر سطرا فقد استدعت شرحا طويلا وافيا في تمام المتون ؛ يوضح غامضها ، ويجلو ما انبهم منها ؛ وذلك أحد الأسباب الرئيسة لاتساع الشرح .

ومعاني الرسالة تتراوح بين العتاب المحض المباشر والعتاب الذي يشوبه روح النفاق فيدفع إلى التماس العذر لصاحب الأمر في فعلته تلك . ولم يخلها من إدلال على ابن جهور بأياديه أملا أن تعطفه عليه، ولكنها أشبهت المنَ عليه فكانت من وسائل التنفيـر لا التقريب (١٤) وكأنا بابن زيدون في آخر رسالته يعلم- علم اليقين – أن الشعر أقوى تأثيرا في النفوس في مثل ذلك المقام ؛ فيختم رسالته بقصيدة تقع في واحد وثلاثين بيتا ؛ تكاد تكون أقوى تأثيرا من كل ما سبقها نثرا ؛لأنها تبقى أسيرة الحادثة المباشرة ، والشكوى والتألم والاستعطاف . وتنجو من هذا الحشد الكبير من الأمثال والأبيات المنثورة والأحداث والوقائع التي نأت بمؤلف الرسالة عن هدفه ،وأظهرته بمظهر من يريد إظهار براعته ، وسعة محفوظه وتنوع ثقافته . وكان حظ الرسالة من اهتمام الباحثين كبيرا (١٥)

الهوامش

(١) ينظر في ترجمته قلائد العقيان ١: ٢٠٩-٢٤٨؛ الذخيرة ق١ ج١ ٣٣٦-٤٣٧ ؛ وفصل في ترجمته في مقدمة الصفدي لتمام المتون ٦-٢١ ؛ فضلا عن مصادر أخرى كثيرة . وشهرته تغني عن ذكر الكثير من التفصيلات في حياته ؛ لشيوعها بين القراء والباحثين . له ديوان شعر محقق في أكثر من طبعة ، كما حققت رسائله .

(٢) للتعرف على بني جهور وكيفية تغلبهم على قرطبة ينظر الذخيرة ق١ ج١ ص ٦٠٢- ٦٠٨

(٣) تنظر رسالته والكثير من شعره ونثره الذي كتبه في سجنه ،وبعد فراره من السجن في الذخيرة ق١ ج١ ص ٣٤٠-٣٦٠

(٤) لا نعرف من أطلق عليها هذا الاسم ، وفي تاريخ الأدب العربي /، بروكلمان ١٤٠:٥ : أنها الرسالة الجدية التي بعث بها مؤلفها إلي أبي الوليد ابن جهور .

(٥) ينظر منهج ابن نباتة في سرح العيون / شرح رسالة ابن زيدون د.نزهة جعفر حسن . مجلة القادسية ع٢ ج٢ حزيران – تموز ٢٠٠٢ ص ٨٣ – ٩٥ .

(٦) الذخيرة ق١ ج١ ص ٣٤٠- ٣٤٦

(٧) هو مؤلف كتاب بدائع البدائه .

(٨) الذخيرة ق١ ج١ ص ٣٤٠

(٩) تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ٥: ١٤٠ وأشار إلى ذلك د. جودت الركابي في كتاب "في الأدب الاندلسي " ص ١٨٩.

(١٠) تمام المتون ٢٢- ٢٩

(١١) منهج ابن نباتة ص ٨٦

(١٢) في الأدب الاندلسي ص ١٩٠

(١٣) الأدب الاندلسي ، موضوعا ته وفنونه ص ٥٩٢

(١٤) ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ص ٤١٥

(١٥) من ذلك – على سبيل المثال لا الحصر- د. علي عبد العظيم في ديوان ابن زيدون ورسائله وفي كتابه الآخر : ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه . ود. جودت الركابي في "في الأدب الاندلسي"ود. مصطفى الشكعة في "الأدب الاندلسي – موضوعا ته وفنونه " ود. منجد مصطفى بهجت في " تأريخ الأدب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة".....

توطئة

أما المؤلف فهو صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي،الأديب،الكاتب الشاعر،ذو المؤلفات في التأريخ والأدب والبلاغة . المتوفى في دمشق عام (٧٦٤ هـ) (١) .

وأما الشرح فيحمل عنوان "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون" كما جاء في الطبعة التي أصدرها محمد أبو الفضل إبراهيم عام ١٩٦٩ .(٢) ولا صحة للعنوان الذي ذكره د. مصطفى الشكعة ، وهو "تمام المتون إلى شرح ابن زيدون" (٣)، وتابعه في ذلك د. منجد مصطفى بهجت (٤) ؛ إذ لا وجود لهذا العنوان في غير هذين الكتابين . كما لا صحة لما جاء في كشف الظنون ؛ حين جعل المؤلف الشرح الموسوم بـ "تمام المتون" شرحا على الرسالة التي كتبها ابن زيدون على لسان ولادة بنت المستكفي إلى الوزير ابن عبدوس (٥) ، وهي الرسالة المسماة بالهزلية . طبع هذا الشرح لأول مرة في دمشق عام ١٣٢٧ هـ ونشره أبو بكر ابن حليم في القاهرة عام ١٣٤٥هـ (٦) . وطبع في مطبعة الولاية ببغداد (د . ت) (٧) ؛ ولم نعثر على أي من الطبعات الثلاث .

أما الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة فهي بتحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم" وقد نشرت في القاهرة عام ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م في دار الفكر العربي ، وتقع في (٥٠٢ صفحة) بما في ذلك فصل في نقد المؤلف لرسالة ابن زيدون (٣٩٩ – ٤٠٣) وفصل لرسالة محيي الدين بن عبد الظاهر القاضي الأديب المؤرخ المصري النشأة والمولد (- ٦٩٢ هـ) (ص٤٠٤-٤١٥)

ثم الفهارس والاستدراك والتذييل والتصويبات وتمتد من (٤١٧- ٥٠٢).

وإذا أخذنا بما جاء في لسان العرب في معنى المتن وجدنا أن المتن من كل شيء :ما صلب ظهره والجمع متون . ومتن كل شيء : ما ظهر منه . والمتن من الأرض ما ارتفع وصلب والمتن: الظهر: يذكر ويؤنث والجمع متون، ومتن الأرض جلدها (٨) .

كل ذلك يجعل من استخدام المتون في العنوان استخداما مجازيا قد لا يبدو بعيدا عما يريده المؤلف لشرح يضعه، لاسيما وقد ضم إليه كلمة "تمام" . ولولا أننا نجد في معاجم أخرى من يقول : إن متن الكتاب : الأصل الذي يشرح وتضاف إليه الحواشي . ومتن اللغة : أصولها وألفاظها (٩) . وقول الآخر : المتن عند المؤلفين : خلاف الشرح. ومتن الحديث: ألفاظه المقوية للمعاني . وقيل هو غاية ما ينتهي إليه الإسناد من الكلام . ومتن اللغة : أصولها وألفاظها ومفرداتها (١٠) . لولا هذه المعاني التي تجعل من الدلالة الحقيقية أقرب إلى القبول لقلنا أن الشارح قد ينحو في عنوانه منحى مجازيا .

ويجتمع هذا الشرح مع شرح ابن نباتة (- ٧٦٨ هـ) الموسوم بـ "سرح العيون" - وكلاهما مشرقي وكانا متعاصرين – في أنهما تجاوزا النصوص الشعرية إلى نصين نثريين أندلسيين ؛ كما تجاوزالشريشي الاندلسي (- ٦١٩هـ) النصوص الشعرية الاندلسية إلى نص نثري مشرقي هو مقامات الحريري .

هل من خصوصية يتصف بها شرح الصفدي بوصفه يتموضع بين الشروح التي اتخذت من النصوص النثرية محورا لاهتمامها ؟ ذلك ما تحاول الصفحات القادمة من البحث أن تجيب عليه .

المقدمة والتمهيد

بعد التصدير الذي قدم به المحقق لتمام المتون ويقع في ثلاث عشرة صفحه ،تأتي مقدمة الشارح التي تبدأ بـ "البسملة" . ولم يكن مألوفا في زمانه أن تحمل مقدمة أي كتاب عنوان المقدمة وان حملت هذا العنوان فبدلالة غير الدلالة التي تعنيها لدينا اليوم كما فعل ابن الأثير (- ٦٣٧ هـ) حين وضع "للمثل السائر" مقدمة "وفي ذهنه ما في ذهننا اليوم من مادة المدخل أو التمهيد " (١١) ؛ ويكون بدؤه بالبسملة إيذانا بكونها مقدمة ذلك التأليف ، وهي ليست خارج الموضوع فيطرحها بعيدا ، وليست من صميمه ليدخلها في التفريعات (١٢) .

وبعبارات يغلب عليها السجع المتكلف يثني على رسالة ابن زيدون ، ويشير إلى أنها رسالة مشحونة بما فيها من الإشارات إلى الوقائع والأمثال وحل الأبيات ولا يكتفي بتقريظها نثرا بل يعقب على ذلك بالثناء عليها شعرا مستخدما نصا للمتنبي منه:

لديها رياض لم تحكها سحابة

وأغصان دوح لم تغنّ حمائمه... (١٣)

ويعود ثانية إلى الثناء عليها نثرا في عبارات لا تخلو من إيقاع الملل في نفس القارئ ولا تخلو من شيء كثير من المغالاة والمبالغة التي يغلب على الظن أنها تنحرف بها عن جادة الكلام المعتدل المقبول . ولا يعني كلامنا غضا من شأن رسالة ابن زيدون ؛ فسطورها تنطق برقي بلاغتها سواء قال الصفدي ما قاله فيها أم لم يقل ؟ ويختم الصفدي "بسملته" بإشارته إلى انه سيقيم عليها شرحه . ويزعم متواضعا انه سيقوم بذلك وان لم يكن كفءً للتصدي لتلك الرسالة ولا ندًا لكاتبها (١٤)

وابرز ما يعنينا في مقدمة الصفدي

أ – إن الشرح كان إملاء ، إذ يقول "آثرت أن أملي عليها شرحا ....." .

ب – انه تصدى لهذا الشرح وان لم يكن له باع طويل في هذا الشأن ، وهو في هذا يبدو متواضعا ، ولكنه التواضع الذي يحمل في طياته كل أسباب الإعجاب الشديد بالنفس ،

يقول :" وأبني على كواكب كواعبها صرحا ، وأكحل جفونا باتت لرقبة بيانها قرحى ....

وان لم أكن من خيل ميدانها ، ولا ممن يعده الأبطال من فرسانها ....." (١٥) فهو إذاً التواضع المبطن بروح التعالي والإعجاب الشديد بالنفس ؛ والذي لا ينطلي على القارئ المتمعن .

ج – ليس في المقدمة ما يشير إلى منهج الصفدي في الشرح ولكنه وفي موضع آخر تكاد مادته تكون لصيقة بما ينضوي تحت عنوان التمهيد يورد رسالة ابن زيدون ويقدم لها بقوله "وأثبتها جملة ، ثم أعود بعد ذلك وأوردها شيئا فشيئا من أولها إلى آخرها ، وكلما أوردت منها شيئا أوضحت مبهمه وفصلت مجمله وأوردت ماله به علاقة "(١٦) . تنتهي البسملة [المقدمة] الموجزة ليعقبها فصل يقع في أربع عشرة صفحة في ترجمة ابن زيدون وإيراد شيء من شعره ؛ يلي ذلك نص رسالة ابن زيدون في سبع صفحات . وهاتان الفقرتان ليستا من صلب الشرح ؛ بل تعدان مدخلا إليه .(١٧) ولسنا نتوقع أن يطلق الصفدي عليهما تسمية التمهيد ؛إذ لم تكن هذه المصطلحات المنهجية قد استقرت آنذاك وأخذت مكانها في نتاج المؤلفين (١٨) لتعني ما تعنيه لدينا اليوم .

تقسيم الشرح

يقع الشرح في مجموعة فقر يصل عددها إلى إحدى وثلاثين ومئة فقرة وهي ليست إلا الفقر أو العبارات الزيدونية ؛ تحمل أرقاما متسلسلة يغلب على الظن أنها من وضع

المحقق . ويختلف موقف الشارح منها إيجازا واختصارا . وهو يبدو نمطيا في بداية تعامله مع العبارة أو الفقرة الزيدونية ؛ حيث يدخل إليها مدخلا لغويا يقوده إلى الخوض في قضايا نحوية ولغوية وصرفية وعروضية . وهو في ذلك لا يخليها من ملاحظاته وتعليقاتها النقدية ، بحسب ما تحتاجه العبارة المعنية إلا انه لا يلبث أن يخضع لطبيعته الاستطرادية ؛ فإذا بالشرح يتسع ويتسع حتى يكاد يبتعد عن منطلقه الأول وهو النص الزيدوني .

إن طبيعة الشرح الموسوعية ، فضلا عن طبيعة الصفدي الاستطرادية ، وتتبعه العبارة –موضوع الشرح – بالمثيلات والأشباه من ابرز الأسباب في اتساع الشرح وتنوعه وتشعبه . فأنت فيه تفتقر إلى التخصص الواحد ، ولكنك تغنى كل الغنى بهذا الاستطراد والتنوع الذي يشدك ويقودك إلى متابعته حتى أخره ، وتصل إلى النهاية فتفاجأ بانتقاله إلى موضوع مشابه ،قريب من الموضوع الأول أو يمت إليه بصلة ؛ أية صلة كانت .

مصادر تمام المتون

تتنوع مصادر تمام المتون وتتسع اتساعا يكاد يجعل من الصعب إحصاءها . وما تنوعها واتساعها إلا لطبيعة الشرح الموسوعية ؛ وليس ذلك إلا صدى لكثرة ما في الرسالة موضوع الشرح- من الوقائع والإشارات التاريخية والإعلام والأمثال والحكم والاقتباسات القرآنية ،والأبيات الشعرية وحل الأبيات الشعرية . فإذا كان موضوع الحديث القران أو أي من الكتب السماوية الأخرى وجدنا الشرح يتسع لكتب التفاسير والشروح ولاسيما الكتب التي تعنى بالقصص القرآني ، مثلما نجد كتب الحديث والسير والتأريخ ، فضلا عن التأريخ الأدبي في محور اهتمامه بالأحداث التاريخية ، والشخصيات التأريخية فضلا عن الشخصيات الأدبية.

ويجد القارئ فهرسا قدمه محقق تمام المتون يضم أسماء مجموعة المصادر التي عاد إليها المؤلف (١٩) . وانه لفهرس يخدع القارئ حين يظن إن مصادر تمام المتون لا تتجاوز الاثنين والعشرين . وتهولك كثرة المصادر التي ذكرها الصفدي في شرحه ، وأغفلها المحقق .ويغلب على الظن أن الصفدي لم يسمّها في مواضع كثيرة ، كما فعل معاصره ابن نباتة في سرح العيون و كما فعل قبلهما ابن عبد ربه (- ٣٢٨هـ) في العقد الفريد .

ليس للصفدي مسلك واحد في تسمية مصادره ؛ فقد يكتفي باسم المؤلف ومصدره حينذاك "شمس الدين الذهبي (ص٢١) والحليمي (ص٣٥) والسهيلي (ص٣٥) والصولي (ص٣٨) وابو عبيد البكري (ص٥٦) والمسعودي (ص٦٢) والمؤرج السدوسي (ص١٠٨)

وأبو عبيدة (ص١٠٩) وفخر الدين الرازي (ص١١٢) والحسن ابن رشيق [القيرواني] (١١٧)
والكلبي (ص١٣٥) وابن قيم الجوزية (ص١٦٩) وابن تيمية (ص١٧٤) وأبو عمر بن عبدالبر (ص١٧٣) والمبرد (ص٢٠٠) وأبو محمد ابن حزم (ص٢٠٠) واحمد بن عبد الملك بن شهيد (ص٢١٩) .....

وقد لا يسمي مصدره فيكتفي بقوله – على سبيل المثال – قـال بعـض المفسرين (ص ١٣٣) وقال بعض الأدباء (٣٢٩هـ) .... وفي مواضع أخرى يسمى المؤلف وكتابه الذي اعتمده فنجد ابن بسام في الذخيرة (ص٦) والفتح بن خاقان في القلائد (ص٦) والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات (ص٣٤) والشهرستاني في الملل والنحل (ص١١) وابن ظافر في نفائس الذخيرة (ص١٤١) ومحمد ابن سيد الناس في سيرة ابن سيد الناس (ص١٤٣) وقاسم بن ثابت في الدلائل (ص١٥٤) وابن شارويه في الفردوس الأعلى (ص٣٠٧) والخطابي في غريب الحديث (ص٤٠٠) ..... واشاراتنا إلى مصادره في موضع واحد لا تعني انه يكتفي باستخدام المصدر مرة واحدة فقد يعود إليه مرتين وثلاثا وأربعا كما فعل في الذخيرة (ص١٤١،٣١،٢١،٦) ودمية القصر للباخرزي (ص ٢٥٢،١٨٤).....

ولا بد أن يكون الاختصار والتلخيص سمة منهجه في التعامل مع المصدر ؛ إذ يكتفي منه بما يخدم الموضوع –مدار الحديث- يقول في حديثه عن السهيلي (- ٥٨١هـ) صاحب كتاب "الروض الآنف" في حديثه عن كلمة سيد "..... هذا ملخـص كـلام السهـيلي" (ص ٣٥-٣٦) .

وانه لأمر غريب أن نجد في التمهيد لتمام المتون حديث الصفدي عن وفاة ابن زيدون فيذكر أنها كانت في عام (٤٦٣هـ) نقلا عن شمس الدين الذهبي [في كتاب العبر] تليها معلومات نقلت [كما يزعم الصفدي] عن ابن بشكوال [في كتاب الصلة] ؛ وفيها ان ابن زيدون توفي سنة ٤٠٥ ومولده كان في سنة ٣٥٤ هـ (٢٠) . ويعلق الصفدي قائلا : " قلت لعل الذي قاله ابن بشكوال أقرب إلى الصواب على ابن بسام قـال في الذخيرة : توفي سنة ثلاث وستين "(٢١) . ويشير محقق تمام المتون إلى انه لم يجد هذا الكلام في الصلة . ولا ندري كيف نجد تبريرا لمثل هذا الكلام الذي زعم الصفدي انه نقله عن ابن بشكوال ؛ فهو يفتقر كل الافتقار إلى الصحة ، ولا علاقة له بابن زيدون بأي شكل من الأشكال . ولولا عبارة الصفدي التي تلت لكنا نزعم انه مقحم على الشرح . ولو سلمنا انه للصفدي لقلنا إن المصدر – أي مصدر- ينبغي أن يكون موضع نقده وتمحيصه قبل أن يفيد منه في شرحه .

مكونات الشرح

بناء على كون الشرح ذا طابع موسوعي فإنك واجد فيه كل ما تضمه كلمة شرح وأكثر مما تضمه . تجد العَلم والمَثل والحادثة التاريخية ، والبيت الشعري المحلول ، وتجد القضية النحوية والصرفية والبلاغية ، وتجد الإشارة العروضية ، وتجد وجهة النظر النقدية ، فضلا عما قدم به لكل عبارة زيدونية من شروح معجمية .... ولا ريب أن ليست كل عبارة أو فقرة زيدونية بها حاجة إلى كل تلك العلوم والمعارف وأن ليس من ضرورة تجعل من وجود هذه المكونات أمرا حتميا وعلى وفق نظام تراتبي معين . وبناء على هذا تفاوت وجودها بين فقرة وأخرى بحسب ما اقتضته العبارة أو الفقرة الواحدة من تعليق وشرح وإيضاح . ولنا عند هذه المكونات وقفة موجزة تلقي الضوء على الضوابط المنهجية لتعامل الصفدي معها .

الأعلام

كثرت الأعلام التي وردت في شرح الصفدي بناء على كثرتها في رسالة ابن زيدون ؛ إلا أن ذكرها في الشرح خلا من الترجمة لها أو التعريف بها، ويقتصر ذكر العلم على الحادثة المحددة أو الموقف الذي أدى إلى شهرة ذلك العلم . وفي الرسالة الزيدونية لمحات سريعة ؛

فيأتي الصفدي بالتفصيل الذي يجلو غامضها ويوضح ما انبهم منها . ولعل ابن زيدون بهذا التكثيف واللمح السريع يظن انه يقدم رسالته إلى من له علم تفصيلي بها .ولو كان الأمر كذلك لأهمل الصفدي ذكر تلك الأعلام ، ولتجاوزها بوصفها معروفة ؛ولكنه أذكى من أن ينحو هذا المنحى ، وهو يعي تماما أن من طبيعة الشروح أن تتناول كل صغيرة وكبيرة ، وتدخل في تفصيلات قد تكون معروفة متداولة وقد لا تكون . وهذا يصح على كل الأعلام المذكورة ، ايجابية كانت أم سلبية؟ فمن الشخصيات الايجابية "نوح علية السلام " . قال ابن زيدون "قال نوح يا بني: اركب معنا ، فقال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء " (٢٢) فعلق الصفدي "يشير بهذا إلى قصة نوح عليه السلام لما جاء الطوفان ، وصعد نوح عليه السلام إلى السفينة بمن آمن معه ، وقال لابنه " يا بني اركب معنا ،قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ".... حيث يبدأ بالدخول في تفصيلات قصة نوح عليه السلام ، كما جاءت في القرآن ، مستعينا بكتب القصص القرآني ...(٢٣)

وإبليس من الأعلام السلبية التي ذكرها ابن زيدون "وما أراني إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت . ويعلق الصفدي فيقول "يشير بهذا إلى قوله تعالى " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر "(٢٤) يعنى لو كان ذنبي إليك ذنب إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم ، فأبى عن السجود واستكبر على آدم وقال "

أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.."(٢٥)وهذا ذنب عظيم سقطت به درجة إبليس ..." وإذا بنا أمام تفصيلات تمتد إلى سبع صفحات يستوفي فيها ما قيل في ذنب إبليس ،مستعينا بالشراح والمفسرين ، متحولا فيما بعد إلى ما قيل في ذنب إبليس شعرا ...(٢٦)

ويلاحظ أن الصفدي في هذا السياق يستخدم ما تصح تسميته بالشرح على الشرح فهو لا يكتفي – في أحيان كثيرة بالتعليق على العلم أو الحادثة بل يقوم بالتعليق على التعليق الذي ذكره ويلاحظ كذلك سعة استطراداته في ذكر قصص الأعلام على نحو ملفت للنظر...(٢٧)

الأمثال: ولها نصيب وافر في تمام المتون إذ لا تقل عن ثمانية وثلاثين مثلا . وموقف الصفدي من الأمثال صدى لموقف ابن زيدون منها ؛ إذ أ كثر من استخدامها في رسالته هذه ، كما أكثر من استخدامها في رسالته [الهزلية] فكان لذلك صدى واسع في شرح ابن نباتة الموسوم" بسرح العيون " عليها(٢٨) . ويقدم الصفدي للمثل بقوله "تقول العرب " أو "من أمثال العرب". وقد ينسب المثل إلى قائله و قد لا ينسبه ، وقد يذكر واقعة المثل وقد لا يذكرها .... وتأتي هذه الأمثال في سياق تمثل ابن زيدون بها ، ويكفينا أن نقف عند قوله " ومع اليوم غد" ليقول الصفدي : هذا أصله في أمثال العرب ، ولكنهم يقولون :"إن مع اليوم غدا " ؛ يضرب مثلا في تنقل الحالات ، وتقلب الأيام بالدول على مرّها وكرّها .

ومن أمثالهم أيضا :" يأتيك كل غد بما فيه " أي بما قضي فيه من خير وشر . ومن أمثالهم أيضا :" لكل صباح صبوح" أي كل يوم يأتي بما ينتظر فيه . ومن أمثالهم .... لكل غد طعام ، وقولهم في المثل ..." عسى غدك لغيرك " ،أي لا تتأخر من اليوم إلى غد فلعلك لا تدركه....

ويقولون في المثل أيضا : " غدا غدها إن لم يعقني عائق"..... وفي المقادير ما يبطل التقدير ، ومع اليوم غد ، واصبر فان الدهر لا يصبر ، قد يتجلى المكروه عما يحمد . انتهى (٢٩)

وهكذا يبدو تعاقب الأمثال لديه وكأنها تستدعي بعضها في متوالية منطلقها عبارة ابن زيدون وحصيلتها مجموعة الأمثال التي قيلت في ذلك الموضوع أو في قريب منه .(٣٠)

ولا شك أن مصادره في الأمثال كثيرة، وإن لم يسمها ، باستثناء ذكره لأبي عبيد البكري (- ١٠٩٤ م) صاحب " فصل المقال في شرح كتاب الأمثال " (٣١)

الشروح المعجمية : ما دامت الأكثر التصاقا بطبيعة الشروح فليس بدعا أن يطغى وجودها على غيرها ، وان تكون المدخل الذي يلج منه الشارح إلى العبارة أو الفقرة المعنية . وأمر طبيعي أن تكون مصادرها معاجم الألفاظ ومعاجم

المعاني ، وان لم يشر الصفدي إلى أي منها . يقول في بداية حديثه عن قول ابن زيدون " ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سحابه ، أو تأخر – غير ضنين – غناؤه " يريبني : فعل مضارع ، والريبة : الشك والتهمة وضنين : بخيل ، وغناؤه – بالغين المعجمة والمد - : النفع"(٣٢) ؛ فالمعنى ، وضبط الكلمة ضبط بنية وإملاؤها ، وذكر ضدها-إن كان لها أضداد ، ومرادفاتها ، وجمعها أو مفردها ، وفعلها أن كانت اسما واسمها أو مصدرها إن كانت فعلا ووزنها ، ومجردها إن كانت مزيدة ، وتمييز المقصور من الممدود ... كل ذلك تجده في شروحه المعجمية ، ولا مجال لفصل هذه الشروح عن ملاحظاته النحوية والصرفية . وإن تم فصلها في هذه الدراسة فللضرورات البحثية.

قضايا نحوية وصرفية :وتتسم وقفاته النحوية بالتعليق السريع على مسألة ما ، كأن يقول في عبارة ابن زيدون "وحاشاك أن أعدّ من العاملة الناصبة... يقال : حاشاك وحاشا لك ، ويقال حاشا لله ، وقرئ (حاش لله) بلا ألف إتباعا للكتاب ، والأصل (حاشا) بألف ، وحاشا كلمة يستثنى بها " (٣٣) وقوله في " قد يغص بالماء شاربه... : وهذه قد التي تدخل على الجمل للتقليل " (٣٤) وقد يغنيها بشواهد من محفوظه ، كقوله في الفعل (لم أكسك) : " أصله أكسوك من الكسوة ، ولكن حذفت الواو لدخول الجازم على الفعل المضارع . تقول : لم أغزكم ولم اجفكم ... واصله أغزوكم وأجفوكم "... (٣٥) ولم نجده يلزم نفسه بالولوج إلى تعقيدات المسائل النحوية ، واختلاف النحاة أو المدارس النحوية فيها فليس ذلك من تخصصه ، وهو كذلك ليس من شأن شرحه أما الصرف فيكاد يفوق النحو في تمام المتون ، ويدور اغلبه على ذكر وزن الكلمات أسماء كانت أم أفعالا ؟ وذكر مصادرها ، وكيف يتم جمع الكلمة ، وكيف يُنسب إليها (٣٦) .

القضايا البلاغية : أمر بدهي أن تنال البلاغة قدرا كبيرا من اهتمام الصفدي ، وهو الرجل البلاغي ذو المؤلفات الكثيرة في هذا المجال (٣٧) وإن لم نجد ما هو جديد في تعليقاته البلاغية فهي لا تعدو أن تكون تعريفا بالفن البلاغي – موضوع الحديث . وتعزيزه بالشاهد والمثل المناسب ؛ كأن يقول في حديثه عن الإطناب " لأن البلاغة أن يذكر الأعم ثم الأخص كقوله تعالى: (فيهما فاكهة ونخل ورمان) (٣٨) وقوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال)(٣٩) . ويتحدث عن حسن التعليل فيقول:" وهذا الذي يسميه أرباب البديع حسن التعليل لأنهم يحسنون الشيء بعباراتهم الفصيحة وإن كان الأمر في نفسه قبيحا " (٤٠) . ولا نعدم أن نجده يخوض في تفصيلات دقيقه تخص الفن البلاغي المعني

وتعزيزه بالشواهد والنماذج المناسبة، ووضع اليد على مواطن الحسن والجمال فيها...كما فعل في تعليقه على قول ابن زيدون " وهل لبس الصبح إلا بردا طرزته بفضائلك " (٤١) مستعينا بآراء البلاغيين الآخرين ، ولاسيما فخر الدين الرازي [صاحب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز]

ولم تصبغ هذه التعليقات الشرح بصبغة بلاغية ما دامت تنال نصيبا يكاد يقترب من الأنصبة التي نالتها القضايا النحوية و الصرفية ؛ وان كانت البلاغة تفوقها قليلا ، انسجاما مع تخصص الصفدي وولعه بالقضايا البلاغية لاسيما علمي البديع والبيان

قضايا عروضية : النص - موضوع الشرح- نص نثري ولكنه لم يخل من كثير من الشعر؛ فقد ضم واحدا وثلاثين بيتا لابن زيدون ، وتسعة عشر بيتا لشعراء آخرين ؛ غير العبارات التي كانت أصولها أبياتا شعرية تحولت إلى نثر في إطار ما يسمى بحل المنظوم . وإذا كان الصفدي معنيا باحالة الأبيات إلى أصحابها وذكر الأبيات المحلولة ، وتكملة أنصاف الأبيات والتعزيز بالكثير من الشاهد والمثل الشعري ، في معرض استطراداته الكثيرة بالمثيلات والأشباه ؛(٤٢)حتى كادت هذه المواضع تعسر على الحصر ، فلا تكاد صفحة تخلو من شاهد أو أكثر من الشعر لا يفرق فيها بين شعر مشرقي وآخر

اندلسي ، وكنا نتوقع في ضوء هذه الكثرة من الشعر أن يكون للعروض والقوافي أصداء في اهتماماته ؛ ولكننا لا نغالي أن قلنا إنها تكاد تكون معدومة . فإن وقف موازنا بين المنهوك و الطويل فلأنه كان في معرض التعليق على بيت لأبي العلاء المعري يقول فيه :

إذا المنهوك فُهْتَ به انتصارا

له من غيره فضل الطويلا (٤٣)

ولا أثر للعروض في غير هذا الموضع .

النقدات : لا تتعدى نقدات الصفدي إطار الاستحسان ؛ تطبعها التأثرية بطابعها ؛ وتخلو من التعليل وهي كثيرة (٤٤) ولا يخلو فصل في نهاية الشرح يحمل عنوان [فصل في نقد المؤلف لرسالة ابن زيدون] (٤٥) . من نقدات تتعدى إطار الاستحسان إلى اقتراح التغيير الذي يجعل من النص الزيدوني أكثر مناسبة ؛ انطلاقا من قناعته بأن لكل جواد كبوة ، وان فوق كل ذي علم عليم . فإذا قال ابن زيدون " الذي ودادي له " قال الصفدي : أتى بها فذة لا أخت لها ، ولو قال بعدها وسدادي لكان قد آخى بين الكلام ...." (٤٦)

وليس من النقد في شيء أن يصحح خطأ تاريخيا وقع فيه ابن زيدون مثل خطئه في قوله " وتأولت في بيعة العقبة " وقوله " وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة" (٤٧) . ويبدو لنا أن العنوان الذي صدرت به هذه النقدات من صنع

المحقق لا سيما وقد حصر بين معقوفين ولا يحصر بينهما غير الزيادات .

الخاتمة:

وخاتمة القول إن من الأسباب التي أدت إلى اتساع الشرح – فضلا عن طبيعته الموسوعية ، وطبيعة الشارح الاستطرادية – أن الشارح لم يقتصر بوقفاته على ما يحتاج إلى الشرح واقعا ، دون غيره مما يدخل في عداد البديهيات وفي عداد ما يعرفه العامة قبل الخاصة.

ولا يتوقع القارئ أن يجد في هذا الشرح سمة الكتب المنهجية التي كان للمنطق بصماته في منهجتها وإخضاعها إلى قيود التقسيم والتفريع والتحديد ؛ فطابعه طابع الشروح الأدبية التي تنفلت من قيود موضعة كل شيء في مكانه ولو استعرنا تعبيرات الإنشائيين لقلنا إنك تقرأ الشرح فتظن نفسك في روضة غناء مليئة بالأشجار والأزهار والورود والرياحين ؛ تتنقل فيها من ركن إلى آخر فتستهويك وتمتع ذهنك وحواسك ، وتغذي ذوقك وعقلك . فإن كنت قارئ متعة فأنت واجد في تمام المتون ما يحقق لك ذلك . وان كنت طالب علم ومعرفة فإنه يغنيك بالكثير.

الهوامش

(١) لمعرفة المزيد عنه وعن نشاطه في الأدب والنقد والبلاغة ينظر التمهيد الذي كتبته مناهل فخر الدين فليح لأطروحتها للدكتوراه " نشاط الصفدي في النقد والبلاغة" بإشراف د.محمد كامل جمعة / جامعة القاهرة/ كلية الآداب ١٩٧٧ ص٥٤- ٧١ ؛ وينظر تصدير المحقق لتمام المتون ص٥-١٥

(٢) وهو كذلك في الأعلام ٢: ٣١٦ ؛ معجم المؤلفين ٣:١٤ ؛ كشف الظنون ١:٨٤١ ؛ تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ٥:١٤٠ ؛ فهرس المخطوطات المصورة / الأدب ١:٥١

(٣) الأدب الأندلسي ، موضوعا ته وفنونه ٥٩٣

(٤) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرنا طه ١٧٧

(٥) كشف الظنون ١:٨٤١

(٦) يراجع تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ٥:١٤٠

(٧) نشاط الصفدي في النقد والبلاغة ٥٩ ويشير محمد أبو الفضل إبراهيم في طبعة عام ١٩٦٩ الى أن طبعة بغداد كانت في عام ١٣٢٧ هـ

(٨) لسان العرب (متن)

(٩) القاموس الجديد (متن)

(١٠) قطر المحيط (متن)

(١١) منهج البحث في المثل السائر ص٤٧

(١٢) نفسه

(١٣) ديوان المتنبي ٤ : ٥٢- ٥٨ حيث أورد ثمانية أبيات منها ، وهي من قصيدة في مدح سيف الدولة- وقد تصرف الصفدي بها حتى

ابتعدت بعض الشيء عن أصلها ؛ فصار الكلام فيها وكأنه في وصف محاسن رسالة ابن زيدون .

(١٤) تمام المتون ٣-٥

(١٥) نفسه ٥

(١٦) نفسه ٢٢

(١٧) منهج البحث الأدبي ٢٣٤

(١٨) منهج البحث في المثل السائر ٤٢ وتنظر كذلك ص ٤٧

(١٩) تمام المتون ص ٤٩٣

(٢٠) نفسه ص٢١

(٢١) نفسه

(٢٢) سورة هود ،آية ٤٢، ٤٣

(٢٣) تمام المتون ١١٨

(٢٤) سورة البقرة ٤٣

(٢٥) سورة الأعراف ١٢

(٢٦) تمام المتون ١١٠- ١١٧

(٢٧) ينظر – على سبيل المثال- ١١٩،١٢٢،١٣١،١٣٩،١٥٥ .....

(٢٨) منهج ابن نباتة في سرح العيون ص ٨٩

(٢٩) تمام المتون ٨٢- ٨٣

(٣٠) تنظر على سبيل المثال ص ٥٦، ٧٢، ١٠٧، ١٠٨، ٣١٧.....

(٣١) نفسه ٥٦- ٥٧ وقد نشر الكتاب بتحقيق الدكتور إحسان عباس ١٩٧١ .

(٣٢) نفسه ٧٦ ، وتنظر نماذج أخرى كثيرة في بدايات كل عبارة زيدونية

(٣٣) نفسه ٣٠٤

(٣٤) نفسه ٤٥

(٣٥) نفسه ٢٩٦ وتنظر على- سبيل المثال – ص ٣٨،٧٥، ٧٦ .....

(٣٦) تنظر – على سبيل المثال – ص ٦٠ ، ٦٧، ٧٨، ٨٦،٩٦

(٣٧) نفسه/ مقدمة المحقق ٦- ٧

(٣٨) الرحمن ٦٨

(٣٩) البقرة ٩٨

(٤٠) تمام المتون ٧٨

(٤١) نفسه ٢٨٨

(٤٢) هذه المواضع أكثر من أن تحصى ، ولا تكاد صفحه في الشرح تخلو منها

(٤٣) نفسه ٣٥٧ – ٣٥٨

(٤٤) من ذلك – على سبيل المثال- ص ٣١، ٦٥، ٧٤، ٧٦،٢٠٧

(٤٥) نفسه ٣٩٩ – ٤٠٣

(٤٦) نفسه ٣٩٩

(٤٧) نفسه ٤٠٠

المصادر والمراجع

١- ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه / علي عبد العظيم ،القاهرة ١٩٥٤ .

٢- الأدب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرنا طة / د. منجد مصطفى بهجت / الموصل ١٩٨٨

٣- الأدب الاندلسي ، موضوعا ته وفنونه / د. مصطفى الشكعة بيروت ، ١٩٧٥ .
٤- الأعلام / خير الدين الزركلي . بيروت ١٩٧٩
٥- تاريخ الأدب العربي / كارل بروكلمان ، القاهرة ١٩٧٥
٦- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون / الصفدي / تح : محمد أبو الفضل إبراهيم / القاهرة ١٩٦٩
٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام تح : د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩
٨- شرح ديوان المتنبي / عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ١٩٧٩
٩- فهرس المخطوطات المصورة / أدب/ إعداد عصام محمد الشنطي ود. خالد عبد الكريم جمعة / معهد المخطوطات العربية ، الكويت ١٩٨٦،
١٠- في الأدب الاندلسي / د. جودت الركابي . القاهرة ١٩٧٥
١١- القاموس الجديد / علي ابن هادية وآخرون . تونس ١٩٧٩
١٢- قطر المحيط / بطرس البستاني . بيروت ١٨٦٩
٣- قلائد العقيان / الفتح ابن خاقان . تح: حسين يوسف خريوش / الأردن . ١٩٨٩
١٤- كشف الظنون / حاجي خليفة . استانبول ١٩٤٣
١٥- معجم المؤلفين / عمر رضا كحالة . بيروت ١٩٥٧
١٦- منهج البحث الأدبي عند العرب / د. احمد جاسم النجدي . بغداد ١٩٧٨
١٧- منهج البحث في المثل السائر / د.علي جواد الطاهر . بغداد ١٩٨٩
١٨- منهج ابن نباته في سرح العيون / د.نزهة جعفر حسن . مجلة القادسية للعلوم التربوية م٢ع٢ ٢٠٠٢
١٩- نشاط الصفدي في النقد والبلاغة / أطروحة دكتوراه على الآلة الكاتبة . مناهل فخر الدين فليح.القاهرة/ كلية الاداب ١٩٧٧

Abstract/ /

Assafadi' s Approach in Thamamil - Mutoon

This study sheds light on Assafadi's approach (764 AH) throughout his interpretation entitled ((Tamamul - Mutoon in interpretting Ibn Zaidoon's thesis)). A thesis Ibn Zaidoon wrote while in prison. It was addressed to Abil Hazm bin Jahwar asking him to free him. Literary historians called it later (AL- Jiddiya) (seriousness) to distinctit from his other thesis having the title (AL- hazliya) (cornic) which he addressed by the tongue of his beloved Wallada to his opponent Ibn Abdoos.

The importance of this study comes out of its way of talking an Andalusian text through Eastern critic prospect. Add to this, the value of criticizing a prose text in a time when poetry criticism were increasing in the East and Andalus. Other aspects are to be noticed by the Readers.